الفصل الرابع

- المؤرخ البريطانى البروفسور أرنولد توينبي فى مناظرة مع ياكوف هيرتزوج سفير إسرائيل فى كندا (٣١ يناير ١٩٦١)

بروفسور توينبى :[1]

من عادة الملاكمين أن يتصافحوا قبل العراك . ولعل هذا مثل طيب للسفراء والأساتذة كذلك . وأخشى أن أقول أن ما سنعرضه ليس مسليا كما يعرضه المتلاكمون . ومع ذلك فهذه مناسبة ذات أهمية وخطورة بالغتين ، وكما قال السفير ، هناك أمر أو أمران نود نحن الاثنين مناقشتهما فى حضوركم . أما الأمر الأول والهام فهو تلك الموازنة التى عقدتها فى كتاب نشرته عام ١٩٥٤ ، على ما أذكر ، بين ما فعله النازى بيهود أوروبا وما فعله الإسرائيليون بعرب فلسطين . وهو موضوع أثير ، على نحو ما ذكر الرئيس ، فى أحد الأسئلة التى ألقيت على فى اجتماع عقد بدار هليل فى أحد الأيام وقد بذلت جهدى للرد عليها . وقد أجبت على ذلك السؤال بكلمة نعم وأثبت ذلك كتابة ولا زلت عند رأيى . وأرى الآن السفير قد سبقنى بأن ذكر لكم حين عقدت هذه المقارنة فى كتابى وكررتها فى ذلك اليوم لم أكن أعقد مقارنة عددية . وذلك

---

(١) عن مناظرة بين المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى وياكوف هرتزوج سفير إسرائيل فى كندا وقتذاك (٣١ يناير ١٩٦١) عن العلاقات العربية الإسرائيلية وسياسة إسرائيل بالنسبة للاجئين العرب .

أنه من الواضح أن لا مجال للمقارنة بين أرقام تبلغ الملايين وأرقام لا تتجاوز الثلاثة أو الأربعة أرقام فى معظم الحالات . والمجموعة الثانية من الأرقام التى أتحدث عنها تتعلق بالمدنيين العرب الذين ذبحوا خلف الخطوط خلال الحرب التى دارت بين الدول العربى والقوات الإسرائيلية فى سنة ١٩٤٨ . وهذا يتبع أرقام وكل زيادة فى الرقم معناها زيادة فى الآلام ولكن من المستحيل أن يكون المرء شريرا أو مجرما أكثر من مائة فى المائة فهو فى الحالين قاتل وشرير . ولأوضح هذه النقط بصراحة إذا أنا قتلت رجلا فأنا قاتل . وليس من الضرورى لأن أصبح قاتلا أن يبلغ ضحاياى الألف أو المليون . وأحب أن أسأل عما إذا كان بينكم فى هذه القاعة مصريون . لأنى أعلم أن بمنتريال عدد من المصريين أغلب الظن أنه لا يوجد منهم أحد . حسنا ولكن لنفترض أن بعضا من المصريين الذين هنا فى مونتريال حضروا هنا الآن وقالوا لى «كيف تستطيع كانجليزى أن تدافع عن مقتل السكان المدنيين فى مدينة بور سعيد المصرية فى خريف عام ١٩٥٦ نتيجة القاء القنابل من الجو ، وهى خسائر بلغت باعتراف الحكومة البريطانية نفسها عددا تبلغ أرقامه أربعة . وقد أوفدت هذه الحكومة شخصا حقق فى الأمر ولم يستطع جعل الأرقام أقل من أربعة . ولنفرض أنى أجيب : «ولكن هذا ليس قتلا . إننا لم نقتل إلا عددا أرقامه أربعة ويجب كى يصبح الإنسان قاتلا أن

يبلغ عدد القتلى مليون . فها هم الألمان قد بلغ ضحاياهم بضعة ملايين من الناس ، وهم لذلك قتلة . ولكن نحن ، البريطانيين ، فإننا لسنا بقتلة» . ماذا تظنون برد كهذا ؟ ماذا تقول مصر وماذا يقول العالم ؟ وإنى أعتقد أن هذا ينطبق على الحالات جميعا . وبالنسبة للمذابح – ولا مناص من استخدام هذا اللفظ – التى أشير إليها ، فأنى ، حينما أعقد المقارنة ، لا أشير إلى القتال الذى كان بين القوات المحاربة للدول العربية وقوات إسرائيل . فالموقف كان ، كما تعلمون ، أن الدول العربية من خارج فلسطين شنت حربا على إسرائيل . وأنا لا أدافع عن هذا . وفى ذلك الوقت كان ما يطلق عليه اليوم أرض إسرائيل بلادا يسكنها العرب وظلوا يسكنوها منذ قرون عديدة ، كما يسكنها الإسرائيليون الذين وفدوا إليها منذ عام ١٩١٧ أى منذ أن استولى البريطانيون على القدس فى سنة ١٩١٧ . وعلى ذلك فالذين أعنيهم هم السكان العرب الفلسطينيون المحليون .

والآن ننتقل إلى النقطة الخلقية . إنى أتفق تماما مع السفير فى أن هذه هى النقطة الأساسية . النقطة التى تتصل بالماضى كما تتصل بالمستقبل . لقد ذكرت أمرا يثير فى نفسى شجونا كثيرة ، وهو عدوان بريطانيا عام ١٩٥٦ – لأوضح لكم كيف أستطيع أن أنظر إلى الأفعال التى اقترفتها بلادى كما أنظر إلى تلك التى اقترفها

الآخرون ولكنى أرى – إذا قبلتم ما قلته عن موضوع الأعداد – أن بعض المذابح ولكنى أرى – إذا قبلتم ما قلته عن موضوع الأعداد – أن بعض المذابح التى اقترفتها القوات المسلحة الإسرائيلية فى فلسطين يمكن مقارنتها – فى المجال الأخلاقى – بما اقترفه الألمان. (ضجيج فى القاعة) . إننا نكره ما اقترفه الألمان لأنه كان مدبرا من قبل ونفذ بقسوة بالغة وبهدف . وأخشى أن أقول ان كل هذه النقاط تنطبق على المذابح (التى قد لا تقارن من ناحية العدد ولكنها تقارن من ناحية الكيف بما فعله الألمان) وهذه المذابح اقترفتها بعض القوات الإسرائيلية المسلحة مثل عصابة الشترن والإرجون . ولا أعلم إلى أى حد اشترك الهاجاناه كذلك فى هذا الأمر . وقد سمعت وليس هناك من أنكر ما سمعت بعد احدى هذه المذابح على الأقل – وهى ذبح جميع السكان المدينيين من الجنسين ومن جميع الأعمار ، بقرية دير ياسين غرب القدس ، فنالقوات الإسرائيلية المسلحة ، ولست أعلم أكانت هذه قوات حكومية أو إحدى القوات المسلحة غير الرسمية – طافت بالسيارات تعلن بالعربية فى مكبرات الصوت ما نصه «لقد فعلنا هذا لسكان ذلك المكان . فإذا لم تريدوا أن يحدث هذا لكم ، فاخرجوا ولا ريب فى أن جميع السكان المدينيين فى منطقة حربية . أو فى جو يهددهم بالموت ، يتركون أماكن سكنهم . وهم فى هذا على

صواب . ومن حسن الحظ أنه بعد تكون أقلية فحسب – من اليهود فى ألمانيا استطاعت أن تغادر ألمانيا قبل فوات الوقت . وبهذا فلتوا من القتل وان كانت ممتلكاتهم قد استولى عليها وصودرت . ولا يوجد من يرى أن اليهود الأوربيين الذين خرجوا من ألمانيا فى ذلك الوقت قد فقدوا حقوقهم الشرعية فى ممتلكاتهم نتيجة استطاعتهم ، عن حكمة وبعد نظر – انقاذ حياتهم وحياة أسرهم بمغادرة البلاد قبل فوات الأوان . ولأضرب مثلا آخر : فى سنة ١٩٤٠ حينما غزا الألمان فرنسا ، هرب بضع ملايين من أفراد الشعب الفرنسى من شمالى فرنسا إلى جنوبها . لنفس السبب الذى حدا بالسكان العرب فى منطقة القتال فى فلسطين عام ١٩٤٨ على الهروب من فلسطين . وليس هناك من يوافق فى ظنى على أنهم قد فقدوا حقهم فى أرضهم وممتلكاتهم وبيوتهم وما شابه ذلك فى شمالى فرنسا لأنهم قد هربوا من منطقة القتال . ولو أن الألمان قالوا اليوم : «نظرا لأننا قد غزونا البلاد فإن هؤلاء الفرنسيين الذين جانبهم التوفيق فهربوا من البلاد قد فقدوا حقهم فى ممتلكاتهم وأصبحت هذه ملكا مشروعا لنا ، وأنه من المخجل ومن مجانبة القانون أن لا نملكها نحن اليوم » . أن مثل هذا القول يبدو بالغ السخف والحمق . ولكنكم لاشك تدركون أن إسرائيل انما تقف اليوم هذا الموقف . فالقسم الأكبر من أرض إسرائيل لا يزال ملكا مشروعا

لهؤلاء الفلسطينيين العرب الذين هربوا من فلسطين خلال الحرب بين الدول العربية خارج فلسطين وبين الإسرائيلية . والممتلكات التى تملكها إسرائيل شرعا هى ما اشترته خلال الثلاثين سنة التى انقضت تحت الانتداب ، وقبل هذا ، فإن أول مستعمرة زراعية يهودية تعود فى ظنى إلى عام ١٨٧٠ وهى مستعمرة روتشيلد . لقد دفع اليهود ثمنا طيبا لهذه الأرض ولذلك فهى من الناحية الشرعية والأخلاقية ملكا لهم . ولكن هذه الأراضى لاتشكل إلا نسبة ضئيلة فى المساحة الكلية لأرض المنطقة ، التى تملكها إسرائيل اليوم . أما الجزء الأكبر من الأرض . كتلك البيوت والممتلكات المنقولة والكروم وأشجار الفاكهة وما شابه ذلك فلا تزال ملكا قانونيا مشروعا للاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون اليوم خارج ديارهم ، وفى حالات كثيرة على مرأى من ديارهم . انهم يعيشون فى ظروف تحيطها التعاسة ، ويشملها اليأس الآن .

وأحب أن أبدى ملاحظة عامة لا تتصل بالطبيعة البشرية العربية أو الطبيعة البشرية اليهودية فحسب ، بل بالطبيعة البشرية التى نشترك فيها جميعا وانى إذ أقول «نحن جميعا» ، أبدا ببلدى فأقول أن من أسوأ نواحى طبيعتنا البشرية أنه كلما وقع علينا ظلم أو ألم أو شر ، ملنا ، وميلنا هذا من النوع اللاارادى بل هو رد فعل سيكلوجى ، لا أن نوقع الظلم الذى كابدناه بمن هم أضعف منا .

ولأضرب لكم مثالا من التاريخ الحديث لبلدى . فى الحرب العالمية الثانية تعرضت بلادى بريطانيا ، لغارات جوية عنيفة . فماذا فعلنا نحن ولم تمض احدى عشرة سنة على هذه الواقعة ؟ لقد انتهت الحرب فى ١٩٤٥ وفى سنة ١٩٥٦ ضربنا بالقنابل فى هجوم عدوانى ، مصر دون اعلان حرب وقد أداننا العالم لاقترافنا هذا العمل . لقد ضربنا شعبا بريئا ، ولعلنا قتلنا أكثر من ألف انسان برىء . ولعلهم كانوا أكثر ممن ذبحتهم القوات المسلحة الإسرائيلية من المدنيين العرب الفلسطينيين فى سنة ١٩٤٨ خلال الحرب بين الإسرائيليين والدول العربية . هذه مأساة الطبيعة البشرية . والمأساة الحقة هى أن شعبا تألم ومر بالألم يقوم بانزال هذه الألم بشعب آخر . ولما كانت مخيلة الإنسان شيئا يتحرك ببطء فانه من العسير علينا أن ندرك معنى معاناة هذه الأمور . ولكن الشعب البريطانى بطبيعة الحال قد قاسى خلال حرب واحدة هذا الضرب بالقنابل لسنين قليلة ولكن الشعب اليهودى عانى القتل والنهب والطرد من دياره ، ليس سنة واحدة أو سنتين فحسب ، ولكن مدى قرون طويلة تمتد إلى ألفين وخمسمائة سنة . وكلما ازدادت خبرة الإنسان بما تعنيه هذه الأمور، كلما زاد التزامه أدبيا فى أن لا يقترفها هو نفسه . ولاشك أن هناك اغراء له بأن يقترف نفس الظلم الذى وقع عليه . ولكن الواجب الأدبى هو فى مقاومة هذا الإغراء .

مستر هرتزوج :

هل تسمح لى يا سيدى الأستاذ بأن القى عليك بعض الأسئلة ؟

بروفسور توينبى :

هل تسمحون لى بأن أضيف نقطة واحدة يا سيدى ؟

ان هناك جانبا فريدا لهذا التشبيه الذى عقدته . انى آمل أن أكون قد شرحت الآن بقدر ما استطيع من دقة ما يدور فى خلدى تجاه هذه المسألة عندما عقدت هذه المقارنة . ولقد دهشت لعنف رد الفعل الذى أثارته ملاحظاتى هذه بين المجتمع اليهودى . وإذا كان الرأى بينهم هو أن هذه المقارنة مما لا يقبله العقل ، ويبدو أنكم ترون أيضا مثل هذا الرأى ، فلم لم يكن ردكم «هذا انسان أبله يلقى بقول أبله . فلماذا نهتم بالأمر ؟ فلنتركه وشأنه » . على أن رد الفعل لم يكن كذلك . لقد كان ، كما تعلمون ، شديدا للغاية . وسأقول هنا قولا قد يبدو موضع جدل . أقول أن أى أخصائى نفسى فى وسعه أن يخبركم بالسبب . أقول أنى ، بعقد هذه المقارنة ، عن غير قصد قد عرضت الشعب اليهودى لما يطلق عليه علماء انفس «العلاج بالصدمة» لقد قلت بصوت عال وبكلمات مزعجة بعض ما تقوله ضمائركم ، ما يهمس به كل

من ينتمى منكم للمجتمع اليهودى بالعالم «ضحك من الجمهور) والآن فيخفت صوتى بعض الوقت فى طيات نفوسكم ولتسمعوا صوتا آخر يقول وهذه ليست كلماتى بل كمات شخص آخر : أنا على يقين أن العالم سيحكم على الدولة اليهودية بما ستفعله للعرب . هذه كلمات رجل اشتهر بينكم شهرة كبيرة هو حاييم وايزمان (الذى كان لى شرف التعرف إليه حينما كنت شابا) الذى كان أول رئيس لجمهورية إسرائيل ، وقد قالها ، فيما أعلم ، أو كتبها عام ١٩٤٩ بعد الحرب بين الدول العربية وإسرائيل ، وحينما كان دكتور وايزمان أول رئيس لإسرائيل . وسأطلب اليكم لذلك أن لا تسمعوا صوتى ، بل أن لا تسمعوا صوت الدكتور وايزمان بل استمعوا إلى الصوت الداخلى الذى يهمس فى ضمائركم . ولا أظن أن أى إنسان يستطيع أن يهرب من ضميره . بل أكثر من هذا أنى لا أعتقد أن يهوديا يريد أن يهرب من ضميره. ورأيى أن مجد اليهود منذ عصر الأنبياء ، وربما قبل هذا ، أن فى كل الخلافات التى كانت بين اليهود وبعضهم البعض أو بين اليهود وبقية العالم ، كان يقوم دائما من بينهم من كان يملك العمق الروحى والشجاعة الأدبية فينتقد شعبه . ولولا كتابات النقاد اليهود لما عرفنا ألوان النقد التى كان يشكو منها اليهود فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . ولذلك أقول : «كونوا نقاد أنفسكم فهذا أعظم

تقاليدكم» . ولذلك فإنى أترككم لضمائركم وأمام رؤية هؤلاء اللاجئين العرب الذين بلغ عددهم اليوم ٩٠٠,٠٠٠ نظرا لكثرة الأطفال الذين ولدوا بالمنفى .

لقد كان من حسن طالعى أن أسرتى لم تقتل وأن ممتلكاتى لم تغتصب ، وانى لم أطرد من بلدى . ولذلك فإنى لا أعرف هذه الخبرات معرفة مباشرة . وهذا هو عدم المساواة الغريبة فى الحظوظ البشرية . ولكن منذ استيلاء هتلر على السلطات شاهدت وقابلت وتحدثت إلى كثير من الاجئين اليهود الأوروبيين وأحسست بالعطف على محنتهم . ومنذ سنة ١٩٤٨ زرت الأماكن التى بها الآن اللاجئون العرب . وقد زرت وتحدثت إلى هؤلاء اللاجئين على نفس النحو الذى كنت أتحدث به مع اللاجئين اليهود الأوروبيين . ولذلك فإنى أعرف – بصورة غير مباشرة – معنى أن يكون الإنسان لاجئا . ولكنى أعلم أن منكم – أنتم الكنديين اليهود – من وفد من وسط أوروبا وشرقها منذ عهد غير بعيد . وعلى ذلك ففى تراث أسركم ، وفى زمن أبائكم أو أجدادكم ، ذكريات حية لهذه الأمور . فأنتم لذلك تعلمون علما أكيدا معنى ما أقول . وعلى ذلك فإنى اترككم لضمائركم لتتدبروا ما يجب أن تفعلوه فى موقف كهذا . فقد أثرنا مشكلة ولم نستطع حلها بعد .

قبل كل شيء أحب أن أقول أنى أتفق معكم تماما بالنسبة لفضائل النقد الذاتى . وإذا كان لى أن ألخص كلماتكم إذا أذنتم لى ، فأعتقد أن هناك ثلاث نقاط : ففى المحل الأول أعتقد أنكم توافقون على أن الجيوش العربية قد هاجمت إسرائيل ساعة قيامها . وفى عبارة بروفسور توينبى :

مستر هرتزوج :

أخرى أن ما قامت به إسرائيل كان دفاعا عن النفس .

حسنا . ان الأمر يتضمن أكثر من هذا ، فلاشك أن أعلان الاستقلال وما شابه هذا كان من وجهة النظر العربية استفزازا .

مستر هرتزوج :

استفزازا يا سيدى ، رغم قرار الأمم المتحدة . وقد حدث فى ١٥ يوليو سنة ١٩٤٨ وبعد أن بلغ الموقف العربى قمة تحديه للسلام وأقول أن أى دراسة لسجلات حكومة الانتداب البريطانى تظهر أن ٧٠٪ من الأرض التى تدخل الآن فى إسرائيل كانت ملك الحكومة . أى أنها كانت ملكا لحكومة الانتداب ، وقبل ذلك للدولة العثمانية . ولم تكن قط ملكا لأى وجود سياسى عربى منفصل فى أى عصر من العصور . والواقع أن الفترة الوحيدة التى

كانت فيها فلسطين كيانا سياسيا منفصلا هى تلك التى اقترنت بالحكم اليهودى والثانية حكم الصليبيين – لكن هذا أمر لا موضع لمناقشته الآن .

بروفسور توينبى :

انى أتحدث عن الملكية الخاصة .

مستر هرتزوج :

بالنسبة للملكية الخاصة ولكل ملكية أخذت خلال الحرب قد وعدنا بدفع التعويض الكامل . لقد وعدنا بهذا مرة بعد مرة فى الأمم المتحدة وأنا أستطيع فى هذا الأمر أن أتحدث بصفة رسمية رغم أنى هنا فى صفة غير رسمية .

ولكن يا سيدى الأستاذ لنعد إلى مسألة الإرتباطات التاريخية التى كنت أشير إليها . لقد رددت الصحف قولك : «أن ليس لإسرائيل حق تاريخى » . فهل أورد بعض حقائق تتعلق بهذا الأمر . أولا أن الإقامة اليهودية فى أرض إسرائيل لم تنقطع طوال التاريخ بل كانت اقامة متصلة . وأستطيع أن أتلو عليكم ما يثبت هذا قرنا أثر قرن . الأمر الثانى أن العودة لإسرائيل أمر جوهرى فى عقيدتنا الدينية وفى صلواتنا وأعيادنا وفى كل وجه من وجوه آمالنا القومية . والأمر

الثالث أن المجتمع الدولى قد اعترف بحجية هذا الحق بواسطة تصريح بلفور وعصبة الأمم والأمم المتحدة . والأمر الرابع أنه حتى بالنسبة للعرب فقد اعترفوا بهذا فى أول الأمر ، فى رسالة من الأمير فيصل إلى الدكتور وايزمان حينما كان يرأس وفد العرب فى مؤتمر السلام تم اتفاق بينهما وشفع هذا الاتفاق بكتاب قال فيه الأمير فيصل أنه يرحب بعودة اليهود إلى ديارهم .

بروفسور توينبى :

لقد أثار السفير نقطة تتعلق بحق اليهود فى فلسطين ، أن العجيب فى أمر اليهود هو أنهم لم تنطمس فى ذاكرتهم قط ذكرى موطنهم . ولقد كانوا فى هذا أمرا شاذا بين الشعوب التى انتزعت من أرضها ونقلت إلى بلادهم على يد البابليين فى القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد . وبينما فقد يهود دولة إسرائيل القديمة وجودهم وكيانهم بعد السبى فان دولة يهوذا ظلت طوال سنى السبى وهى محتفظة بكيانها المستقل . وكما نعلم جميعا اندثرت الأسباط العشرة . ودولة إسرائيل القديمة تمثل اليوم ببضع مئات من السامريين بعضهم فى الأردن وبعضهم الآخر فى دولة إسرائيل الحالية . بينما الشعوب الأخرى التى كانت معاصرة لدولة يهوذا وإسرائيل القديمة اندثرت تماما فى الوقت الذى ظل فيه اليهود

محافظين على وجودهم المتميز . وقد تم هذا عن طريق تعلقهم بذكرى فلسطين .

لقد قلت منذ لحظات أنى أعتقد أن يهود اليوم والغد سيكونون اللاجئين الفلسطينيين العرب ذاك أنهم يعانون نفس الحالة الذهنية التى عاناها اليهود بعد سبى بنوخذ نصر لهم مباشرة . ان لفلسطين سحر خاص يستهوى عقول الناس ، إذا عاشوا فيها .

ولكن الآن ماذا عن هذا المطلب اليهودى ؟ هناك شيء فى القانون ، بل أعتقد فى كل أشكال القانون ، يقول بسقوط الحق نتيجة التقادم ، فإذا أخذنا مثلا عام ١٣٥ الميلادى باعتباره التاريخ الذى قام فيه الرومان بطرد الجانب الأكبر من سكان فلسطين اليهود – فإذا أخذنا هذا التاريخ وقلنا أن سقوط الحق لا ينطبق حتى على هؤلاء الذين غادروا البلاد فى التاريخ ، ماذا يحدث بالنسبة لمدينة كمونتريال ؟ لقد كان هنود اللاجونكوين يسكنونها منذ ثلاثمائة أو أربعمائة سنة على الأكثر . فهل يقال كذلك بضرورة عودة مونتريال إليهم ؟ وبعودة انجلترا لأهل ويلز ؟

مستر هرتزوج :

نعم .

بروفسور توينبى :

أحقا ؟ إذن فعليك أن ترحل خمسين مليونا من الإنجليز وتجعل منهم لاجئين .

والآن أحب أن أتحدث عن وعد بلفور . وأحب أن أوكد أولا أنى شخصيا أشد الناس تنديدا بوعد بلفور وقد كنت فى شبابى خلال الحرب العالمية الأولى أعمل للحكومة البريطانية فى الأمبراطورية التركية ، وكانت هذه تشمل بالطبع فلسطين . وعلى ذلك فقد توفرت لى معرفة داخلية بما حدث فى ذلك الوقت . وكما أندد بوعد بلفور فإنى أندد تنديدا أشد بمسلك حكومة الانتداب البريطانية خلال الثلاثين سنة التالية على التصريح ذاك لأنى أعتقد أننا لم نتفق على خط سياسى أو نعزم أمرنا على أمر سواء بالنسبة لهذا الجانب أو ذاك . وهو أمر أضر بالعرب واليهود على السواء . وعلى كل حال فتصريح بلفور يتصل إتصالا وثيقا بموضوع هذا الحق المدعى لليهود فى فلسطين . والفقرة الأولى فى التصريح تنص على أن بريطانيا تتعهد بتأييد أو إقامة ، أو شىء من هذا القبيل ، وطن قومى لليهود فى فلسطين . أما الفقرة الثانية فتنص على أن لا يتخذ أى إجراء من شأنه المساس بمصالح سكان البلد الذين كان العرب يؤلفون منهم إذ ذاك – أى وقت صدور

التصريح فى عام ١٩١٧ ، ٩٠ فى المائة - وأنا أوجه اللوم إلى تصريح بلفور لأن كلمة «وطن» قد أتت على نحو غامض . ولكن الأمر أوضح غاية الوضوح كما أعلم بصورة مباشرة من الإطلاع على الوثائق التى صدرت ذلك الحين باعتبارى موظفا مؤقتا فى وزارة الخارجية البريطانية . لقد أوضح غاية الوضوح ، وبصورة قبلها دكتور وايزمان اذ ذاك ، أن «وطن» لا تعنى «دولة» ذاك لأنه لو كان هذا كذلك - أى كان لفظ وطن يعنى «دولة» - لكانت الفقرة الأولى من تصريح بلفور تناقض الفقرة الثانية منه . وهذه الفقرة الثانية التزام لا يقل إيجابا وحجية بالنسبة للحكومة البريطانية التى أصدرت التصريح وهو يفرض عليه أن لايقع أى حيف بحقوق ومصالح السكان الحاليين فى البلاد . وأعتقد - كما أظن أن كل انسان يشاركنى هذا الاعتقاد - أن لليهود حق المطالبة بوطن قومى ولكنى أعتقد كذلك أن الوطن القومى لا يمكن أن يصبح دولة دون المساس بحقوق السكان الأصليين للبلاد وهو مساس شاهدنا أثره فى التسعمائة ألف لاجئ فلسطينى . ولعل الوطن القومى كان يمكن أن يأخذ صورة دولة فلسطينية تضم اليهود والعرب على قدم المساواة . وقد يقال أن هذه إمكانية نظرية وأنه فى اللحظة التى فتحت فيها أبواب البلاد للهجرة اليهودية بشروط لم تكن صادرة عن سكان البلاد أنفسهم ، ولكن صادرة عن الحكومة البريطانية ، فقد كان لابد للأمور أن تخرج عن الطريق المرسوم لها .

ولاشك فى أن جميع الأنظمة والشعوب التى عاشت فى فلسطين منذ ١٣٥ بعد الميلاد قد سمحت لليهود بالعيش فى فلسطين واعترفت لهم بحقوقهم . وقد كان يعيش فى القدس دائما جماعة من أتقياء اليهود يدرسون الشريعة . وكان النظام التركى يسمح بهذا . وأشك فى أن الصليبيين كانوا يسمحون به . ولعل الدولة الوحيدة التى أنكرت على اليهود هذا الحق هى دولة الصليبيين .

وفكرة الوطن القومى هى توسيع لهذا الوضع . لقيام ٥٠,٠٠٠ يهودى بدراسة الشريعة فى القدس و ١٢,٠٠٠ يهودى يعملون فى المزارع كما كان الحال سنة ١٩١٧ . كانت هذه هى الصبغة القديمة للوطن القومى اليهودى ، وقد استهدفت الحركة الصهيونية التى كان يتزعمها دكتور وايزمان والحكومة البريطانية التى كان يرأسها مستر بلفور توسيع قاعدة هذا الوطن اليهودى القومى واسباغ مظهر حديث عليه وذلك بالسماح بهجرة أوسع وأن يخول اليهود الحق وتيسر لهم السبل للاستقرار ، فى أعداد محدودة ، فى فلسطين – أعداد محدودة بالنظر لالتزام بريطانيا بعدم الاضرار بمصالح سكان فلسطين إذ ذاك .

انى أوجه الوم لوعد بلفور فى هذا المعنى ، وأعتقد أن محاميا يستطيع أن يثبت تناقض الالتزامين اللذين يتضمنهما . وعلى كل حال فقد يبدو هذا حكمة متأخرة . ولعلنا لا نستطيع أن نوجه كثيرا من اللوم إلى الحكومة البريطانية ذاك الحين لأنها لم تتوقع إذ ذاك أن – العرب واليهود – سيفسران التصريح بصورة متناقضة . ولقد وضعت فلسطين فى مرتبة «أ» بقصد اعدادها للحكم الذاتى والاستقلال التام . وقد فسر العرب باعتبارهم يكونون ٩٠ فى المائة من سكان البلاد بأناستقلال فلسطين معناها أن تصبح دولة عربية تضم أقلية يهودية. وفسر بعض اليهود الوطن القومى باعتباره منتصف الطريق نحو الدولة اليهودية ، وأخشى أن أقول أن بعضهم كان يردد «حتى لو أن هذا لم يرده البريطانيون ، فسنستخدمه كذريعة للحصول على دولة يهودية فى النهاية » . وهذا أمر بشرى ولا أستطيع أن أكثر من الوم فى هذا الصدد . وأعتقد شخصيا أن وعد بلفور كان على حق حينما أقام هذه الحدود . وقد تشبهونها برطل اللحم ونقطة الدم فى رواية تاجر البندقية . فما دام التصريح قد نص على عدم المساس بمصالح السكان غير اليهود البالغ عددهم ٩٠ فى المائة بمعنى هذا أنه لا يمكن قطعا أن يقوم وطن قومى فى المعنى السياسى بل على أن يقام هذا على الأكثر فى المعنى

الثقافى. أعتقد أن هذه هى الشروط التى قبلتها المنظمة الصهيونية ذاك الحين والتى وضعتها الحكومة البريطانية والتى منحت بها اليهود أمرا قريبا إلى نفوسهم . ولقد ضمن التصريح كتابة حقوق سكان البلاد إذ ذاك وهو أمر كانت تلزم به جميع مقتضيات القانون والأخلاقيات .

مستر هرتزوج :

بالنسبة لقانون سقوط الحق بالتقادم وهو أمر له – بجانب اطاره القانونى – اطار تاريخى أحب أن أتلو عبارة وردت فى كتابكم «دراسة فى التاريخ» تقولون فيها : «يعيش اليهود ، بينما اندثر الفينيقيون وفقد الفلسطينيون شخصيتهم ، شأنهم شأن جميع الأمم. لقد انصهر الجيران السوريون القدامى فى البوتقة وأعيدت صياغتهم من جديد فى ملء الزمن فى صور جديدة بينما أثبتت إسرائيل أنها أقوى من قوانين الكيمياء التى يفرضها التاريخ» . وهذا وصف بليغ إذا جاز لى القول للبقاء اليهودى .

بروفسور توينبى :

إذا سمح لى بأن أعالج هذه النقطة الأخيرة . ان مقاطعات كندا تمتد لمساحات أشد سعة من الدول العربية الثمان . بل أنها

لتمتد من المحيط إلى المحيط . وعلى هذا فيجب ، استنادا إلى حجة السيد السفير ، أن لا ترفض كندا اعادة مونتريال إلى قبائل الجونكوين اقديمة التعسة . والقول بأن العرب غير الفلسطينيين قد أحرزوا الاستقلال لا يجب أن ينهض مبدأ لاحالة السكان السابقين لما يسمى اليوم بإسرائيل إلى لاجئين وأغراب عن ديارهم كما هو شأنهم اليوم . وبالنسبة لتصريح بلفور أحب أن أقرر بلا لبس ولا ابهام أنى أعلم أنه كان مفهوما بصورة واضحة أن الوطن القومى لا يراد به الدولة القومية اليهودية . ولقد أبلغت الحكومة البريطانية هذا بصورة واضحة للمنظمة الصهيونية عند صدور التصريح ، وقد قبلت المنظمة التصريح على هذا الاساس . وسلمت عصبة الأمم الانتداب على فلسطين لبريطانيا فى نطاق هذا المفهوم وهذه الشروط . وانى اعتقد أن بريطانيا قد أساءت التصرف بصورة بالغة فى ممارستها سلطات الانتداب . بل أعتقد أننا تولينا أمرا ليس فى مقدور دولة أن تتولاه . ورغم ذلك فلا محل للقول بأن اليهود قد أخطأوا فى ذلك الحين فهم التصريح وأنه يتضمن الوعد بانشاء دولة يهودية .

مستر هرتزوج :

ولكنها حقيقة ثابتة أيها الأستاذ أن التفسيرات التى أدلى بها المسئولون عن التصريح واجماع الرأى العالمى ذاك الحين وما تكشفت عنه السنون بعد ذلك يفيد معنى الدولة . ولاشك أنكم توافقون على .

بروفسور توينبى :

أعتقد أن هناك نقطتين فيما أدلى به السفير الآن . الأولى عودة اللاجئين إلى ديارهم . والثانية استخدام اللاجئين كسلاح سياسى وأعتقد أن هناك تناقضا فى الموقف الإسرائيلى . فأنتم تطالبون بعودة اليهود إلى فلسطين رغم أنهم تركوها منذ عام ١٣٥ ميلادية ولم يكن فى فلسطين قط كتلة ملحوظة من السكان. وإن كنت أوافق على أن قلة من اليهود عاشت بصورة مستمرة فى فلسطين . وهى أقلية قليلة . ومنذ عام ٦٤ قبل الميلاد لم تقم دولة يهودية فى فلسطين . لقد أديتم الحق فى العودة لا كما نص وعد بلفور فى صورة وطن قومى ولكن فى الصورة المتطرفة للدولة . ولكنكم تنكرون فى نفس الوقت على العرب الذى أرغموا على مغادرة فلسطين ، الجزء الإسرائيلى فى فلسطين ، عام ١٩٤٨ ،

تنكرون عليهم ما يعتبر الحجة الأساسية التى يستند إليها الشعب اليهودى . هذا موقف متناقض . عليكم أن تتأملوه . ثم نقطة استخدام اللاجئين كسلاح سياسى ، لقد أتيحت لى فرصة تجاذب أطراف الحديث مع ممثلى الدولة العربية خلال السنوات القليلة الماضية – وأعتقد أن المنظمة الصهيونية وحكومة إسرائيل تعيشان فى بيت زجاجى بالنسبة لموضوع استخدام اللاجئين كسلاح سياسى . ذلك أنى أرى شبها بليغا بين استخدامهما الاجئين اليهود كسلاح سياسى وما ينسبونه للعرب فى هذا المجال . وقد حدث الكثير وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية مما يوضح كيف وجهت الصهيونية اللاجئين اليهود إلى فلسطين ، استغلالا لمحنتهم فى سبيل توطيد السياسية الصهيونية ، بدلا من اقرارهم فى أستراليا أو أمريكا الشمالية حيث كان ينتظرهم المأوى والمستقبل .